رياض نجيب الريّس

لبنان

تاريخ مسكوت عنه

RIAD EL-RAYYES
BOOKS

رياض نجيب الريّس

لبنان:
تاريخ مسكوت عنه

LEBANON:
A HISTORY UNSPOKEN OF

By:

Riad Najib El-Rayyes

First Published in June 2001

BEIRUT - LEBANON

ISBN 9953 21 046 2

هذا الكتاب
على شبكة الانترنت:
http://www.elrayyesbooks.com
E-MAIL: el-rayyes@inco.com.lb

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: حزيران/ يونيو ٢٠٠١

محاضرة ألقيت في مؤتمر
اتحاد الكتّاب اللبنانيين في بيروت عن
«المسكوت عنه من أسس الدولة في لبنان
حقيقة الاختيارات ما بين ١٩١٩ ـ ١٩٧٥»
٢٥ أيار/ مايو ٢٠٠١

٨

١

لا يعنيني من المسكوت عنه في التاريخ اللبناني، وهو كثير، إلا التوقف عند محطات تاريخية معينة ذات علاقة مباشرة وحميمة بين لبنان وسورية، وذات إسقاطات عديدة من الماضي على أحداث معاصرة، لعل اللبنانيين يدركون أن تاريخ العلاقة مع سورية، ليست كلها كما يتصورها فريق معلّب الرأي سلفاً. فقليل من التاريخ ربما يفرفح قلب اللبناني.

عند نشوء الدولة اللبنانية على شكل كيان لبنان الكبير، حصل خطأ مميت في بناء الحياة اللبنانية السياسية والاقتصادية كما مورست فيما بعد.

وتمثل هذا الخطأ في أن أكثر من نصف اللبنانيين لم يكن يريد هذه الدولة، والنصف الثاني الذي يريدها كان يريد معها حماية أجنبية خوفاً من أن يلتهمها الطرف الأول عن طريق إلحاقها بوحدة مع سورية. والمسكوت عنه في التاريخ اللبناني أكثر من المعروف أو المتداول منه. والسبب الرئيسي في ذلك هو التوافق بين اللبنانيين على رواية تاريخ معين تجد الأطراف اللبنانية نفسها فيه متساوية أو متوازية مع الأطراف الأخرى. فليس في المتداول من التاريخ مقابل المسكوت عنه، أية بطولة أو وطنية، مقابل خيانة طروحات الدولة والوطن لحساب الصراعات الطائفية وانقسامات التبعية وتردد الانتماءات المتعددة الولاء. ولكن خيانة مَن وليس هناك من وطن يُخان، ووطنية مَنْ وليس هناك من دولة يُحتفى بها؟

II

لماذا يعاد اليوم فتح ملف كنا نعتقد أننا فرغنا منه منذ أكثر من نصف قرن؟

أليس من المُضجر والمُتعب والمُمل أن نعود إلى وضع الوجود المسيحي والكيان اللبناني موضع جدل وشك دائمين؟ ألم يعد من الضروري الكف عن مناقشة هذه المسألة؟

في هذا العصر غير المضيء أصبح الحديث في البديهيات الفكرية والسياسية أمراً ضرورياً، بعد أن اغتالت القطرية الضيقة أهداف الوحدة القومية، وقضت الطائفية المتعصبة على كل الأسس الوطنية، مثلما فضحت القبلية شخصية المواطن اللبناني

وخلطت بين هويته الأساسية وأهوائه المرحلية.

لقد أضحى الحديث في الوطنية والوحدة والديموقراطية والبرلمانية والحزبية ثقيلاً على الآذان، مستهجَناً من أصحاب الثروات ومتعمشقي السلطة. وشجعت السلطات الحاكمة المتوالية مؤامرة الصمت على ضياع التاريخ اللبناني الوطني. وانهالت الكتابات الدعيّة والجاهلة لتخوض معارك الدويلات الطائفية وكأن الانتداب لم يغادر بلادنا بعد. واتضح من هذه الكتابات أن فكرنا ليس غير فتات من هنا وهناك، وأن تراثنا كأنما هو مجرد معلومات سطحية تجمعت من بقايا موائد المقاهي، وأن تاريخنا لغوٌ يجتره أنصافُ المثقفين ويتبجح به الأميون.

عند هذا المفترق وبعيداً عن أسواق الأيديولوجيات المتداولة، لا بد من أن أتطرق إلى علاقتي الشخصية بموضوع هذه المحاضرة. لقد كان لي شرف ومتعة احتراف العمل في الصحافة اللبنانية

منذ أكثر من أربعين سنة. لكن قبل ذلك كنت واحداً من نتاج ذلك الجيل العربي الذي جاء لبنان وهو في ذروة وهجه وعنفوانه، فدخل مدارسه وتخرّج في جامعاته وانضم إلى أحزابه وتعلّم السياسة في مقاهيه وتنشّق حريته وتسكّع في مكتباته، إنما الأهم من ذلك كله أن هذا الجيل قرأ صحافته وعرف من خلالها أن للرأي أكثر من وجه، وأن للفكر حرمة هي في اتساع العقل الإنساني، وأن حرية الإنسان هي في حرية رأيه وفكره ومعتقداته.

لم يكن لدى ذلك الجيل أي شعور بالتمايز «القطري» بين غير اللبنانيين وبين اللبنانيين. كان التطلع خارج الحدود اللبنانية أمراً طبيعياً، وكان التقوقع داخل الحدود اللبنانية أمراً انعزالياً. كانت بيروت وقتها امتداداً حقيقياً لدمشق، وكانت الحزبية السورية ـ اللبنانية، حزبية أشخاص عاشوا معارك الانتداب معاً وسعوا إلى الاستقلال معاً.

كبُرَ هذا الجيل العربي في قلب الأحداث اللبنانية، وأخذ يتعرف إلى مزالق الحياة السياسية، في الوقت الذي أطاح حكم الرجل الواحد أو الحزب الواحد معالم التعددية في أقطار العالم العربي. واكتشف هذا الجيل أنه بالرغم من كل هذه المزالق، ظل قادراً على تفضيل لبنان على غيره من أقطار العالم العربي، وتمييزه لفضله الواسع عليه ولعبق الحرية يشده دائماً إليه.

لكن هذا الجيل العربي لم يكن غافلاً عن قصور النظام اللبناني وضحالة بعض أوجه الفكر السياسي اللبناني وشراسة العصبية القبلية اللبنانية وعمق التعصب الطائفي اللبناني المختبئة كلها وراء مظاهر الليبيرالية الخادعة. كان يعرف أن ذلك كله يحمل في طياته أسباب الحساسية المفرطة التي يتمتع بها الفرد اللبناني تجاه «الغرباء» إلى درجة الشوفينية، على عكس نظامه السياسي الذي أتاح دائماً وعبر تاريخه كله «للغرباء»

التدخل في شؤونه.

وكان لبنان نفسه في ذلك الزمان يعتز بأنه الوطن العربي الوحيد القادر على احتضان صحافة حرة. وكانت التقاليد الصحافية اللبنانية في حينه استمراراً للصحافة العربية التي نشأت في مصر وسورية وفلسطين منذ بداية القرن العشرين.

لقد اتخذتُ في حينه قراراً واعياً أمليته على نفسي والتزمت به طوال سنوات عملي في الصحافة اللبنانية، هو أن أتطرق في كتابتي إلى كل شؤون الدنيا إلاّ الشأن السياسي اللبناني. لذلك صرت أعرف تقريباً وعلى امتداد السنوات، أكثر سياسيي العالم العربي من دون أن أعرف أكثر من سياسي لبناني واحد. وكنت قانعاً بذلك لأنني لم أكن فريقاً ولا طرفاً في الشأن اللبناني، بينما كنت وما زلت فريقاً وطرفاً في الشأن العربي العام.

ولما تحول لبنان من شأن خاص إلى شأن عربي عام، ولم تعد الكتابة في الشؤون اللبنانية تدخلاً

في خصوصيات العائلة اللبنانية أو القبيلة اللبنانية أو الطائفة اللبنانية، قررت أن أكسر الحرم الذي فرضته على نفسي لسنوات. وهكذا أصبح لبنان بماضيه وحاضره ومستقبله، كما كان أصلاً عبر تاريخه، نقطة تحول أساسية في مجرى أحداث العالم العربي، يعني الكل ويفرض على الكل رأياً وموقفاً[١].

III

أريد بكثير من البساطة أن أقف عند مجموعة من التطورات السياسية الحاصلة حالياً على الساحة اللبنانية التي هي امتداد للطروحات الفكرية التي قدمها الفكر السياسي المسيحي اللبناني منذ القرن الماضي، إلى حين بدء الحرب الأهلية اللبنانية في العام ١٩٧٥، واستمر في طرحها بأصوات متعددة وأشكال مختلفة طوال «سنوات اتفاق الطائف»، من دون أي تعديل في الأساس.

إلا أن اللافت عند الاستغراق في متابعة هذا النوع من التفكير السياسي، هو مدى التطرف الذي

يلون معظم أفكاره وطروحاته في الابتعاد عمّا يجمعه بالعرب وبسورية معاً، مما دفع أصحابه إلى الاجتهاد في تحريف التاريخ وتزويره، وتفسير المواقف وتأويلها في محاولة لتجريم العروبة وإدانة المتمسكين بها، وذلك لتبرير شعور المسيحيين بالخوف من طغيان الأكثرية الإسلامية في المنطقة، سواء كان هذا الخوف مستنداً إلى أساس أو لم يكن.

وقع بعض المسيحيين اللبنانيين على العموم وبعض الموارنة منهم خاصة، في ورطة، فأوهموا أنفسهم أنهم برفضهم الانتماء العربي تخوفاً واستعلاء، عليهم أن يتحالفوا مع إسرائيل، فوضعوا قضية المسيحية كوجود في المنطقة على المحك. بل الأخطر من ذلك في رأيي هو أنهم شككوا في تراث عربي وإسلامي عريق شارك المسيحيون العرب جميعاً في صناعته لا بوصفهم مسيحيين قبل الإسلام وبعده، بل بوصفهم عرباً كسائر

إخوانهم العرب. ومن المؤسف أن هذا الجهل والتجاهل للواقع التاريخي ولحقيقة الحركة الصهيونية، كادا يجعلان من المسيحيين واللبنانيين أداة لتصفية أربعة عشر قرناً من الجهد الثقافي والسياسي الذي قام به المسيحيون فأثبتوا عبره أنهم جزء لا يتجزأ من تاريخ العرب وحضارتهم.

وإذا كان الحكم العثماني قد سمح للغرب بلعب دور الرعاية للطوائف المسيحية عن طريق القناصل والمبشرين، مسهلاً له النجاح في مهمته، فإن إسرائيل بدت خلال الربع قرن الأخير وكأنها تريد أن تعيد التجربة على طريقتها. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن إسرائيل ألحقت بالمسيحيين اللبنانيين إحراجاً ما كان ليحصل لولا سقوط حركة القومية العربية والانحطاط الذي أصابها، وفشل المشاريع الوحدوية، وضمور الأحزاب القومية، وانحلال الحركات العلمانية، ناهيك عن الهزيمة

العسكرية للأنظمة العربية ذات التوجه القومي في وجه إسرائيل وإشغالها داخلياً بنزاعات طائفية مفتعلة وانشغالها بأزمات سياسية محلية فردية، وإهمالها لقيم الديموقراطية فكراً وممارسة. وما من شك في أن هذه الحال التي انتهت إليها حركة القومية العربية شجعت على اختراع فهم إيديولوجي مضلل للكيان اللبناني، من شأنه تحويل الطائفية إلى ظاهرة أزلية ـ أبدية.

لقد شجعت إسرائيل، منذ الهزيمة العربية في حزيران ١٩٦٧، الصراعات الطائفية، المحلي منها والخارجي الذي يتمتع ببعد دولي، وجيرتها لمصلحتها ولحسابها في سبيل أن تكون وتبقى هي القوة الإقليمية الكبرى المسيطرة في المنطقة العربية. ونجحت إسرائيل، طوال سنوات الحرب الأهلية وما بعدها، في الإيحاء إلى المسيحيين اللبنانيين وإقناع بعضهم بأن العدو الذي ينبغي عليهم أن يحاربوه هو العروبة التي تهدد

وجودهم، وهو سورية التي تنوي ابتلاعهم.
وعندما استطاعت إسرائيل أن تُدخل إلى هذا الاتجاه اللبناني المسيحي عقلية الصليبية الغربية، كانت تعرف أنها ستخلق في المقابل عند الطرف اللبناني المسلم عقلية الفتح الإسلامي. لكن إسرائيل نسيت عند استقطابها هذين التطرفين، أن تحسب حساب نشوء المقاومة الوطنية اللبنانية أولاً والإسلامية ثانياً، ونموها التدريجي لتصبح من أروع ما قام به العرب في تاريخهم من نضال في وجه العدوان الخارجي[٢].

١٧

لقد فتح لبنان أبوابه على مصراعيها لكل أجنبي يتوسله ويستخدمه لا لحماية استقلاله وكيانه بل لحماية طوائفه والحفاظ على مكاسبها وربط ما تبقى من استقلاله في عجلة هذه أو تلك من الدول الأجنبية. ومن المؤسف أن سمعة لبنان، منذ أن صار له اسم على الخريطة السياسية، هي سمعة الارتماء في أحضان الحماية، لا سمعة الكفاح من أجل الاستقلال الحقيقي.

فإذا كان هناك ثمة أعجوبة ما، فهي في اللبناني الفرد وفي الشعب اللبناني وإنجازاته، لا في لبنان

الكيان الجغرافي «الأزلي السرمدي» ولا في لبنان الدولة. فالأعجوبة التي أظهرت «الأعور» اللبناني ملكاً بين «العميان» العرب في فترة الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين انقلبت في السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات إلى انهيار كلي «للنموذج اللبناني»، الممثل بالتعددية الطائفية والديموقراطية العشائرية والبرلمانية القائمة على الزعامات الطائفية التقليدية. فإذا بهذه الأعجوبة تعود القهقرى لتنزوي في نطاقين ضيقين:

- الأول: الحرية السياسية، بمعنى أنه يمكن للبناني والعربي المقيم في لبنان، أن يعبّر إلى حد ما في المقاهي وفي الصحف ووسائل الإعلام وأحياناً في الشارع، عن معارضته لسياسات معينة (ضمن الحدود التي كان يرسمها القانون اللبناني مراعاة للأنظمة العربية).

- الثاني: الحرية الاقتصادية، بمعنى أن اللبناني

والعربي يستطيع أن يوظف أمواله في مصارف وأسواق لبنان في منأى عن «اشتراكية» الأنظمة العربية، وأن يشتري ويضارب ويبيع ويتاجر، ضمن الحدود التي ترسمها المصلحة اللبنانية.

ولكن مع بداية السبعينيات، تقلصت أعجوبة هاتين الحريتين. وأخذ رأس المال العربي بالهرب. وفي نهاية الثمانينيات، وبعد حوالى سبع عشرة سنة من حرب أهلية ضروس، انهارت الأعجوبة الاقتصادية، كما انهارت في التسعينيات الأعجوبة السياسية بعد أن قضت التركيبة الحاكمة في لبنان ما بعد اتفاق الطائف على بقايا الحياة السياسية. وأصبح التبجح بفضائل الصيغة اللبنانية محصوراً في الماضي ولا يتعداه إلى الحاضر ولا إلى المستقبل.

وبينما كان هذا يحدث، كانت الأنظمة العربية «الحسودة» للبنان في رأي بعض اللبنانيين، تنمو

اقتصادياً وتتطور سياسياً وتتحرر داخلياً وتقوى خارجياً. وبدا هذه المرة كما لو أن الستار قد أسدل على الأعجوبة التي اسمها لبنان.

٧

من بين المسكوت عنه عند قيام الدولة اللبنانية المحكومة بوحدة التاريخ والجغرافيا مع سورية التي هي من ثوابت التعامل بين البلدين، مجموعة حوادث فيها من العبر بقدر ما فيها من الطرافة.

في شباط ١٩٣٣ أدلى غبطة بطريرك الموارنة مار أنطونيوس بطرس عريضة بحديث إلى جريدة «المقطم» المصرية إبان المفاوضات التي كانت جارية آنذاك بين المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان المسيو بونصو وبين الحكومة السورية. وكان جل الحديث تعقيباً على بيان

كان قد أدلى به بونصو أمام لجنة الانتدابات في عصبة الأمم، ذكر فيه أن لبنان بين البلدان التي قبلت الانتداب بطيبة خاطر وذلك لاختلاف مذاهب سكانه، ورأى أن جميع هذه المذاهب من الأقليات التي لا يمكن لواحدة منها أن تسود الأخرى. لكن بطريرك الموارنة علق لمراسل «المقطم» في بيروت على كلام المفوض السامي بقوله:

«نعم نحن قبلنا الانتداب بطيبة خاطر. أما الأقليات والأكثريات وقولهم فينا فلا يَعنينا، فلبنان وطن مسيحي»[٣].

لكن مراسل «المقطم» عاد وسأل غبطة البطريرك: «لكن السوريين يا صاحب الغبطة يتشبثون بإرجاع الأجزاء التي ألحقتها فرنسا بلبنان إلى سورية».

فأجابه البطريرك: «ومتى كانت سورية ممتلكة لهذه الأجزاء وسلبناها منها؟ إن هذه الأجزاء هي أصلاً للبنان وقد سلبت منه في الأزمان الماضية، فإذا استعادها إليه فقد استعاد ما هو ملكه واستردّ

ما هو حق له. ألم يكن لبنان ممتداً حتى أنطاكية وحتى عكا وما وراءها؟».

قامت قيامة السوريين على هذا الحديث. فكُذِّب ثم نُفي ثم أُكِّد إلى أن أصبح من العلامات الفارقة في العلاقات السورية ـ اللبنانية على الرغم من نفيه وتأكيده في آن معاً واستمرار الأخذ والرد فيه إلى نهاية الانتداب.

وجاء حديث البطريرك عريضة في الوقت الذي كانت فيه سورية تفاوض الفرنسيين على إلغاء الانتداب وتنظيم قضية المعاهدة السورية ـ اللبنانية المقترحة. وردّ السوريون على الشق السياسي في حديث البطريرك اللبناني بقولهم إن سورية الآن في موقف سياسي دقيق أقل ما يقال فيه أنه موقف تصفية بين سورية وفرنسا من جهة وبين سورية والبلاد التي سلخت عنها من جهة ثانية. وما دامت قضية المعاهدة أو إلغاء الانتداب ستطغى على البحث في هذه الأيام، فإن من حق سورية

أن تعلم ما إذا كانت البلاد المسلوخة عنها عقب الاحتلال الفرنسي هي بلاد سورية وسكانها سوريون يجب المطالبة بها وإعادتها إليها، أم أنها أخرجت نهائياً من الجسم السوري وأصبحت إلى الأبد بلاداً لبنانية متممة للوطن اللبناني الذي يقول عنه البطريرك إنه وطن مسيحي.

يومها سخرت الصحافة السورية مما ورد على لسان البطريرك وكتبت «القبس» الدمشقية: «هذا سؤال نلقيه على الفرنسيين الذين اقتطعوا هذه الأجزاء السورية بقوتهم وضمّوها إلى لبنان رغماً عن أهلها. وسؤال نوجهه إلى المفاوض السوري الذي تقدم إلى المفاوضة باسم سورية ذات القضية الوطنية التي تعرض اليوم على التصفية النهائية لنعلم كيف يكون موقف هاتيك الأجزاء من الوطن السوري. وهذا السؤال نفسه نوجهه إلى سكان هاتيك البلاد الذين ضموا إلى لبنان بغير إرادتهم والذين لم يقولوا ساعة واحدة لا

بالانتداب ولا بلبنان»[٤].

وفنّدت الصحافة السورية في حينه مقالات كثيرة وطويلة وعلى امتداد أيام أقوال البطريرك اللبناني خصوصاً تلك التي زعمت بأن الأجزاء السورية هي أصلاً للبنان وسلبت منه. ومما ورد من تعليقات: «لستم أنتم يا سيدي الذين سلبتم هذه الأجزاء من سورية وألحقتموها بلبنان.. بل هم الفرنسيون أصحاب الأساطيل والجيوش والمدافع. فأنتم لستم الآخذين بل أنتم المأخوذ لكم».

وكتب نجيب الريس في «القبس» يقول:

«كنا نتمنى أن لا يكون غبطته صاحب هذا الحديث الذي يتناول قضيتنا الوطنية والقومية في الصميم لأننا نحن في الشام لا نعرف ولا نريد أن نعرف ولا نقبل أن يعرفنا أحد بأن سكان دمشق غير سكان طرابلس وأهل حلب غير أهل اللاذقية وأبناء حماه غير أبناء النبطية وبعلبك، فجميع هؤلاء سوريون عرب يطلبون الوحدة والاستقلال

ويرفضون الانتداب». وأضاف: «إذا كان اللبنانيون الذين تكلّم بلسانهم صاحب الغبطة لا يريدون هذا التحرر فهم أحرار. ولكن سكان طرابلس وصيدا وصور وجبل عامل وبعلبك والبقاع الذين لم يقبلوا بالانتداب من قبل والذين يريدون أن يتحرروا من نيره ويطلبون أن يؤلفوا مع إخوانهم هنا دولة سورية واحدة، إن هؤلاء لا يستطيع صاحب الغبطة أن يتكلّم بلسانهم ولا أن يقول بالنيابة عنهم إن لبنان قبل الانتداب عن طيب خاطر. وغبطته له ملء الحق في أن يقبل الانتداب باسمه.. أما أن يقبله باسم رياض الصلح وعبد الحميد كرامي وعمر الداعوق وغيرهم... فهذا كثير وعجيب ومدهش.. إن لبنان ليس وطناً مسيحياً أو إسلامياً بل هو وطن للجميع»(٥).

وفي أيار ١٩٣٥ (أي بعد سنتين) تغيرت الأجواء حين أدلى غبطة البطريرك عريضة نفسه بحديث صحافي تعقيباً على تعليق خرجت به صحيفة

فرنسية اسمها «لاديبيش نوفيل» سخرت فيه من تقارب الوطنيين في سورية والموارنة في لبنان إثر شبه اتفاق اقتصادي تمَّ بين البلدين، وسمّت هذا التقارب من الوطنيين السوريين أزهاراً مسمومة يقدمونها لغبطة البطريرك ليخدعوه ويستغلّوا نفوذه، ورد يومها البطريرك اللبناني في حديثه الصحافي على هذا التحريض قائلاً: «إننا نقبل هذه الأزهار من السوريين سواء أكانت مسمومة أم نقية، لأن هذا أمر يعنينا وحدنا»، ثم تساءل بلهجة ملؤها الألفة والتقريع: «وماذا يضر الآخرين إن اتفقنا؟ إن قضية اتفاقنا مع السوريين ليست قضية أزهار مسمومة بل هي قضية مصلحة أو مصيبة جمعتنا».

وفي خلال سنتين خرج السوريون عبر صحافتهم، وكانت في حينه من أكثر الصحافات العربية حرية في التعبير وفي تعدد وجهات النظر، يرحبون بحديث البطريرك اللبناني ويؤيدون موقفه

ويقولون إنهم إذا أيدوا موقف البطريرك اليوم فلا ينكرون أنهم لم يكونوا كذلك بالأمس، وإن هذا الاعتراف الصريح منهم هو أكبر دعامة في اتفاقهم لأن الذين يعرفون لماذا كانوا يختلفون يعرفون أيضاً لماذا غدوا يتفقون. فإذا فرقتهم أحقاد الماضي وسياسة الماضي فقد جمعتهم اليوم مصيبة الحاضر ومصلحة المستقبل.

وليس عجباً ـ كما ذكرت «القبس» الدمشقية ـ أن يتحد المسلمون والنصارى في هذا الوطن المشترك أو الموارنة في لبنان والوطنيون في سورية، ولكن العجيب أن يتأخروا في هذا الاتحاد الصريح الواضح حتى اليوم وهم يعلمون أنهم مرغمون على ما توجبه المصلحة ويفرضه حب البقاء.

وتساءلت الصحيفة: «لماذا كانوا يتهموننا بالتعصب يوم كنا مختلفين ولماذا كان جوابهم أن هذه البلاد لا تستحق الاستقلال إلاّ أن تزول منها الفوارق المذهبية، حتى إذا اتفقنا اليوم راحوا

يعجبون من اتفاقنا ويحاولون تلغيمه. لقد أثبتنا باتفاقنا على المطالبة بسيادة بلادنا وحريتها وتخفيف الأعباء المالية عن كواهل أهلها، أن اختلاف المذاهب لا يمنع الاتفاق، وأنه ليس ضرورياً أن تزول هذهِ الفوارق حتى نعيش مع بعضنا في وطن: نحن أهله ونحن أصحابه الشرعيون. فالمسلم يظل مسلماً، والمسيحي يظل مسيحياً والوطن يبقى للاثنين ما دامت مصلحة سورية في سيادتها وفي اقتصادياتها وفي ثروتها هي نفسها مصلحة لبنان».

بعد حوالى تسعة أشهر من هذا الاتفاق ومن التصريح البطريركي مشت سورية إلى بكركي في كانون الثاني ١٩٣٦، لتهنىء بطريرك الموارنة في لبنان بعيده. وكتب نجيب الريّس في افتتاحية له يقول:

«هذه أول مرة تمشي فيها سورية من دمشق إلى لبنان لا للنزهة ولا للتجارة بل لتدشين عهد طالما

بقينا عليه وطالما نادينا به، وطالما قلنا إنه الوسيلة الوحيدة الناجحة لخلاصنا جميعاً. فإذا بهذا العهد الذي نشدناه طويلاً وأخفقنا في الوصول إليه كثيراً يدشن في بكركي وعلى باب كنيستها وأمام هيكل المسيح، بعد أن دشن في الجامع الأموي وعلى باب محرابه وإلى جانب ضريح النبي يحيى فالتقى أصحاب العهدين وتصافحت أكف البلدين، ونفست زفرة الصدرين بالألم المشترك والمصيبة الواحدة ونادى سيد لبنان بصوته الداوي بالحرية وبطلب الخلاص. وصاح خطيب سورية ونائبها والمتكلم بلسانها (فخري البارودي) أن دماءنا ودماءكم أيها اللبنانيون المارونيون قد سالت للدفاع عن هذه البلاد وعلى أرض الوطن الواحد وعلى ضفاف العاصي منذ مئات السنين. أجل لقد التقت سورية ولبنان على أعواد المشانق في عهد جمال باشا كما التقت دماؤنا على ضفاف العاصي في عهد الغزاة الرومانيين...

واليوم نلتقي من جديد في صعيد واحد وفي بكركي... في سبيل الألم الذي وحّد قلوبنا، وفي سبيل إزاحة هذا النير الثقيل الذي يحز في أعناقنا، نلتقي لنطلب الحرية وننشد الخلاص...»[٦].

VI

كانت حادثة البطريرك الماروني مع السوريين من الحوادث الكثيرة المسكوت عنها في تاريخ لبنان المعاصر الذي ليس سوى سجلٍ حافلٍ من الاتجاهات السياسية المتناقضة. فمنذ العام ١٩١٩ لم يشهد لبنان اتجاهاً سياسياً موحداً تجاه المشكلات السياسية أو القومية. لكن تلك الاتجاهات السياسية الفكرية لم تكن في حينه قائمة على أساس طائفي إسلامي أو مسيحي. وكان «مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة»، قد عقد في دار سليم علي سلام عام ١٩٣٦، الذي طالب بإقامة الوحدة السورية.

فيما خرج عن هذا الرأي عضو المؤتمر كاظم الصلح الذي رفض الوحدة السورية أو الوحدة العربية القائمة على أساس إسلامي أو طائفي.

وكانت أهمية مؤتمر الساحل من الناحية السياسية، أنه آخر مؤتمر وحدوي عقد في لبنان، في الوقت الذي انطوى على أمرين مهمين:

- □ الأول: جملة تراجعات وتنازلات من جانب المسلمين اللبنانيين عن طلب الوحدة والاتجاه للاعتراف بلبنان الكبير، شرط أقامة العدل والمساواة بينهم وبين الطوائف المسيحية.

- □ الثاني: تسابق السياسيين السوريين إلى الاعتراف بلبنان وسورية دولتين منفصلتين، خصوصاً بعد توقيع المعاهدة الثنائية الفرنسية ـ السورية في العام ١٩٣٦، التي تولى بعدها هاشم الأتاسي رئاسة الجمهورية السورية ولم يعد متحمساً لوحدة البلدين،

الموقف الذي فسره اللبنانيون أنه تخلٍ عنهم واعتراف بصيغة لبنان الكبير[٧].

ويلاحظ عند هذا المنعطف أن اندفاع اللبنانيين ـ وأغلبهم من المسلمين ـ نحو الوحدة مع سورية، كان أقوى بكثير من اندفاع السوريين أنفسهم لتلك الوحدة. ومن أسباب ذلك أن التوزّع الديموغرافي الذي كان للبنان والتقسيمات الإدارية وسياسة الانتداب الفرنسي الطائفية، كانت تختلف عنها في سورية. مع لفت النظر إلى أن الدعوة إلى الوحدة السورية لو تمت كانت ستتم في ظل الانتداب الفرنسي وبعيداً عن المطالبة بتحقيق الاستقلال.

والمفارقة اللافتة أن المسلمين اللبنانيين الذين كانوا يطالبون بالوحدة مع سورية، لم يكونوا في العهد العثماني من دعاة القومية العربية أو الوحدة العربية أو من دعاة الانفصال عن الدولة المركزية العثمانية باستثناء قلة منهم. بينما كان معظم أبطال

الاستقلال عن الدولة العثمانية وتحقيق الاتحاد على أسس قومية عربية غير قائمة على أسس فكرية دينية أو طائفية، هم من المسيحيين. واللافت للنظر في موقف كاظم الصلح في مؤتمر الساحل، أنه كان يمثل توجهاً إسلامياً جديداً في مفهوم الوحدة مع سورية، حيث أرادها وحدة قومية لا طائفية أو دينية، على نحو لا تتحقق فيه رغم إرادة الفريق المسيحي.

ومن المفيد هنا التذكير أنه بعد مؤتمر سان ريمو في إيطاليا عام ١٩٢٠، ونتيجة لاتفاق سايكس ـ بيكو عام ١٩١٦، تمَّ تقسيم المناطق العربية بين فرنسا وبريطانيا. فقسمت فرنسا، الدولة المنتدبة على سورية، البلاد إلى دويلات طائفية، وأعلنت أيضاً، بحكم انتدابها على لبنان، بلسان الجنرال غورو في أول أيلول عام ١٩٢٠ ولادة دولة لبنان الكبير. ولما عُقد مؤتمر الصلح في فرساي في باريس أرسل اللبنانيون والسوريون بمختلف

فئاتهم، برقيات ومذكرات وعرائض احتجاج إلى ذلك المؤتمر، يرفضون فيها رفضاً قاطعاً تقسيم البلاد السورية. وتناولت هذه المذكرات احتجاجاً على موقف البطريرك الماروني إلياس الحويك الذي كان أول من طالب بفصل لبنان عن سورية وضم الأقضية الأربعة إليه.

وكان المؤتمر السوري العام المنعقد في باريس بين ١٩١٩ و١٩٢٠ برئاسة الأمير فيصل بن الحسين وشاركت فيه وفود من مختلف أنحاء سورية ولبنان أعلن رفضه القاطع وبإجماع المؤتمرين، لانفصال القطرين. لكن ما إن هزم الجنرال غورو جيش فيصل (وكان قد أصبح ملكاً على سورية) بقيادة وزير دفاعه يوسف العظمة في ميسلون في تموز ١٩٢٠، حتى أعلن دولة لبنان الكبير في أيلول ١٩٢٠ على الرغم من استمرار اللبنانيين والسوريين الوحدويين على مطالبتهم بوحدة البلاد السورية، مؤكدين مضار التقسيم من النواحي

القومية والسياسية والاقتصادية والجغرافية وحتى اللغوية، في مذكرات وعرائض متلاحقة إلى المسؤولين الفرنسيين يطالبون فيها بإعادة وحدة سورية ولبنان.

واستمر دعاة الوحدة من اللبنانيين في التعبير عن رفضهم الاعتراف بصيغة دولة لبنان الكبير حتى العام ١٩٢٦، عندما حاول المفوض السامي هنري دي جوفنيل إشراك جميع الطوائف اللبنانية في صياغة دستور للجمهورية اللبنانية، طالباً من جميع الطوائف والجماعات الدينية والسياسية رأيها في الدستور، فامتنعت القوى الإسلامية الوحدوية عن المشاركة في صياغة الدستور تعبيراً عن رفضها للواقع التقسيمي للبلاد السورية[٨].

لكن في أوائل الثلاثينيات لجأت بعض القوى الإسلامية إلى الاعتراف بلبنان الكبير والتفاعل معه، فشارك المسلمون بإحصاء عام ١٩٣٢ الذي أثبت تساوي عدد المسلمين بعدد المسيحيين. ولما

جاءت انتخابات رئاسة الجمهورية اللبنانية عام ١٩٣٢ خسر مرشح السياسيين المسلمين للرئاسة الشيخ محمد الجسر رغم موالاته لفرنسا، لا لشيء إلاّ لأنه مسلم. وكان المسلمون ميّالين للاعتقاد أن الاتفاق يقضي باتباع المناوبة في اختيار رئيس الجمهورية وأن من حقهم الترشح إلى هذا المقام والوصول إليه. واتخذت المفوضية الفرنسية حجة في رفض ذلك مفادها: «أنه لما كان رئيس الجمهورية السورية مسلماً، فمن الإنصاف أن تكون الرئاسة في لبنان لمسيحي».

وإذا اعتبرنا أن «مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة» للعام ١٩٣٦ هو آخر مؤتمر وحدوي تمثلت فيه كل الفئات اللبنانية المطالبة بضرورة تحقيق الوحدة السورية، كان «المؤتمر القومي الإسلامي» في العام نفسه (تشرين الأول ١٩٣٦) الذي عقد في دار عمر بيهم في بيروت، ذا صبغة إسلامية تمثلت في وفود من المناطق الملحقة بلبنان الصغير، وهو المؤتمر

الذي رفع بدوره مذكرة إلى المفوض السامي يطالب فيها بتحقيق وحدة شاملة لأجزاء سورية أولاً وللأقطار العربية ثانياً، مع تسجيل بعض التراجعات الوحدوية والاستعداد للاعتراف بواقع لبنان الكبير. وكانت دعوة كاظم الصلح، ومعه عادل عسيران وشفيق لطفي إلى تطوير مفهوم «الوحدة» و«اللبنانية» بحيث لم تعد الأولى تعني «الإسلامية» ولم تعد «اللبنانية» تعني «المسيحية» بمفهومها الضيق، قد أخذت تجد أنصاراً لها، حيث قرّ الرأي على أن الوحدة يجب ألاّ تتم بقرار من المفوض السامي الفرنسي، ولا حتى بالتظاهرات، «لأننا لا نريد أن نبني وطناً نصف سكانه أعداء له».

وكان المفوض السامي الفرنسي الكونت دي مارتيل قد اتهم المؤتمر القومي الإسلامي بأنه «مؤتمر طائفي»، مما دفع برياض الصلح، أحد أعضاء المؤتمر، إلى الدفاع عنه بالقول: «إننا لم نتقدم

بمطالبنا باسم الشعار الطائفي، إلاّ لأن انفصال لبنان نفسه يستمد وجوده من الشعار الطائفي. ولولا الطائفية لما كان لبنان منفصلاً عن سورية».

في الوقت نفسه أبدى المسلمون استعدادهم للاعتراف بدولة لبنان الكبير وبالجمهورية اللبنانية مقابل الوصول إلى حقوقهم ومساواتهم بالمسيحيين. لكن سياسة الانتداب الفرنسي الطائفية لم تحاول استغلال هذا الاستعداد لتوحيد لبنان الدولة والكيان[٩].

VII

إن الحياة السياسية في لبنان، التي قامت على ما يمكن الاصطلاح عليه بـ «التكاذب التاريخي» بين نخب الطوائف وزعمائها، سوف تنشىء لعبة أقل ما يقال فيها أنها كانت واحدة من الثوابت المؤسسة للعنف المسلح وللحروب الأهلية الباردة المستمرة.

لقد لاحظ المؤرخ كمال الصليبي المنطق الداخلي لعناصر اللعبة اللبنانية التقليدية رائياً إليها بوصفها «لعبة تشمل توالياً من التعاملات المراوغة بين لاعبين يزعم جميعهم التمسك بأفكار ومبادىء قومية أو وطنية، تهدف إلى خدمة الصالح العام،

فيما يسعى كل منهم إلى الاحتيال على الآخر والإطاحة به، مدفوعاً إلى ذلك بولاءات وضغائن وأحقاد بدائية خبيثة تعود في أصولها إلى غابر الأزمان»(١٠).

أما اللعبة السياسية اللبنانية التي أخذت تتشكل بعد وقف الحرب الأهلية في مستهل التسعينيات، فهي لعبة ملتبسة ومشوّشة في أدائها ومضامينها وشعاراتها وقواها. لعبة مرتكزها وثيقة سياسية دستورية، محمية بقوى محلية وإقليمية ودولية، ما لبثت القوى المحلية أن انقلبت عليها إثر وقت قصير.

ولو كان مفهوم الهوية الوطنية اللبنانية كما طرحه وقدمه أيديولوجيو «المارونية السياسية»، مفهوماً وطنياً صحيحاً، موضوعاً بشكل عقلاني وواقعي في إطار الاعتراف بعروبة البلد أساساً، لكان هناك مجالٌ لنجاحه قواماً لدولة لبنانية مقبولة لدى جميع اللبنانيين.

إن هذا هو أحد الأوجه المسكوت عنها في الثقافة

السياسية التاريخية للكيان اللبناني. بل قد يكون هذا واحداً من الأسباب التي أدت إلى انفجار ما سمي بالأعجوبة اللبنانية والنهاية المأساوية التي آل إليها الميثاق والصيغة اللبنانيان منذ الاستقلال وحتى أيامنا هذه.□

المراجع

(١) رياض نجيب الريّس ـ «**المسيحيون والعروبة**» ـ سلسلة قضايا راهنة ـ رياض الريّس للكتب والنشر ـ لندن ١٩٩١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) نجيب الريّس ـ «لبنان وطن مسيحي (١)» ـ جريدة «**القبس**» الدمشقية ـ ١٩٣٣/٢/٢٠.

(٤) نجيب الريّس «لبنان وطن مسيحي (٢)» ـ جريدة «**القبس**» الدمشقية ـ ١٩٣٣/٢/٢٢.

(٥) نجيب الريّس ـ «أزهار مسمومة» ـ جريدة «**القبس**» الدمشقية ـ ١٩٣٥/٥/٢٨.

(٦) نجيب الريّس ـ «أرض التعصب» ـ جريدة «**القبس**» الدمشقية ـ ١٩٣٥/١/١٥.

(٧) حسان علي حلاق ـ «**مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة ـ ١٩٣٦**» ـ الدار الجامعية ـ بيروت ١٩٨٢

(٨) المصدر نفسه.

(٩) الشيخ بشارة خليل الخوري ـ **حقائق لبنانية ـ مذكرات** ـ منشورات أوراق لبنانية، بيروت ١٩٦٠.

(١٠) كمال الصليبي، **تاريخ لبنان الحديث** ـ دار النهار للنشر ـ بيروت ١٩٦٧.

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ **موت الآخرين** ـ شعر، ١٩٦٢.

٢ ـ **الفترة الحرجة** ـ دراسات نقدية (١٩٦٠ - ١٩٦٥). الطبعة الأولى ١٩٦٥. الطبعة الثانية مزيدة وليست منقحة، بعنوان فرعي «**نقد في أدب الستينات**» - ١٩٩٢.

٣ ـ **صراع الواحات والنفط** ـ هموم الخليج العربي. الطبعة الأولى ١٩٧٣، الطبعة الثانية ١٩٧٤.

٤ ـ **البحث عن توفيق صايغ** ـ شعر، ١٩٧٥.

٥ ـ **المسار الصعب** ـ المقاومة الفلسطينية: منظماتها، أشخاصها، علاقاتها. ١٩٨٦ (مع دنيا نحاس) [صدر بالإنكليزية أيضاً].

٦ ـ **ظفار** ـ قصة الصراع السياسي والعسكري في الخليج العربي (١٩٧٠ - ١٩٧٦) - ١٩٧٨.

٧ ـ **الخليج العربي ورياح التغيير** ـ مستقبل الوحدة والقومية والديموقراطية. الطبعة الأولى ١٩٨٦، الطبعة الثانية ١٩٩٠.

٨ ـ **وثائق الخليج العربي** ـ طموحات الوحدة وهموم الاستقلال. الطبعة الأولى ١٩٨٧، الطبعة الثانية ١٩٩٠.

٩ ـ **جواسيس العرب** ـ صراع المخابرات الأجنبية. الطبعة الأولى ١٩٨٧، الطبعة الثانية ١٩٩١.

١٠ ـ **شخصيات عربية من التاريخ**. الطبعة الأولى ١٩٨٧، الطبعة الثانية ١٩٨٩.

١١ ـ **المسيحيون والعروبة** ـ مناقشة في المارونية السياسية والقومية العربية. الطبعة الأولى ١٩٨٨، الطبعة الثانية ١٩٩١.

١٢ ـ **العرب وجيرانهم** ـ الأقليات القومية في الوطن العربي. ١٩٨٩.

١٣ ـ **قبل أن تبهت الألوان** ـ صحافة ثلث قرن. ١٩٩١ .

١٤ ـ **رياح السموم** ـ السعودية ودول الجزيرة بعد حرب الخليج، ١٩٩١ ـ ١٩٩٤. الطبعة الأولى ١٩٩٤، الطبعة الثانية ١٩٩٥. الطبعة الثالثة ١٩٩٧.

١٥ ـ **أكتب إليكم بغضب** ـ كيف تقول «لا» في عصر «نعم». ١٩٩٦.

١٦ ـ **ثلاثة شعراء وصحافي** ـ رسائل جبرا ابراهيم جبرا، يوسف الخال وتوفيق صايغ إلى رياض نجيب الريّس. ١٩٩٦

١٧ ـ **رياح الشمال** ـ السعودية والخليج والعرب في عالم التسعينات. ١٩٩٧. الطبعة الثانية ١٩٩٧.

١٨ ـ **صحافي ومدينتان** ـ رحلة إلى سمرقند وزنجبار. الطبعة الأولى ١٩٩٧

١٩ ـ **رياح الجنوب** ـ اليمن ودوره في الجزيرة العربية (١٩٩٠ ـ ١٩٩٧). الطبعة الأولى ١٩٩٨

٢٠ ـ **حديث صحافي مع الإمام علي بن أبي طالب**. الطبعة الأولى ٢٠٠٠

٢١ ـ **المفكرة الأندلسية** ـ أموي في غرناطة دمشقي في قرطبة. الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

٢٢ ـ **رياح الشرق** ـ الخليج والعالم العربي عند نهاية القرن العشرين. الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

٢٣ ـ **مصاحف وسيوف** ـ إيران من الشاهنشاهية إلى الخاتمية. الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

٢٤ ـ **قضايا خاسرة** ـ من الإسكندرونة إلى البلقان ومن عُمان إلى الشيشان. الطبعة الأولى ٢٠٠٠.

٢٥ ـ **الجاني والضحية** ـ مصادرة الإسلام والعروبة. الطبعة الأولى ٢٠٠٠

فهرس الأعلام

أ

الأتاسي، هاشم ٤٠

ب

البارودي، فخري ٣٦
بونصو (المسيو) ٢٧، ٢٨
بيهم، عمر ٤٥

ج

الجسر، محمد ٤٥
جمال باشا ٣٦

ح

الحويك، إلياس (البطريرك) ٤٣

د

الداعوق، عمر ٣٢
دوجوفنيل، هنري ٤٤
دومارتيل (الكونت) ٤٦

ر

الريّس، نجيب ٣١، ٣٥

س

سلام، سليم علي ٣٩

ص

الصلح، رياض ٣٢، ٤٦
الصلح، كاظم ٤٠، ٤٢، ٤٤
الصليبي، كمال ٤٩

ع

عريضة، بطرس (البطريرك) ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٩

عسيران، عادل ٤٦

العظمة، يوسف ٤٣

غ

غورو (الجنرال) ٤٢، ٤٣

ف

فيصل بن الحسين (الأمير) ٤٣

ك

كرامي، عبد الحميد ٣٢

ل

لطفي، شفيق ٤٦

ي

يحيى (النبي) ٣٦

فهرس الأماكن

أ

إسرائيل ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١
الأقطار العربية ٤٦
أنطاكية ٢٩

ب

باريس ٤٢، ٤٣
بريطانيا ٤٢
بعلبك ٣١، ٣٢
البقاع ٣٢
بكركي ٣٥، ٣٦، ٣٧
بيروت ٢٨، ٤٥

ج

جبل عامل ٣٢

ح

حلب ٣١
حماه ٣١

د

دمشق ١٣، ٣١

س

سورية ٩، ١٠، ١٥، ١٨، ٢١، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٧

ش

الشام ٣١

ص

صور ٣٢

صيدا ٣٢

ط

طرابلس ٣١، ٣٢

ع

العالم العربي ١٤، ١٥، ١٦

ف

فرنسا ٢٨، ٢٩، ٤٢، ٤٥

ف

فلسطين ١٥

ل

اللاذقية ٣١

لبنان ٩، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٩

م

مصر ١٥

ن

النبطية ٣١



رياض نجيب الريّس

لبنان

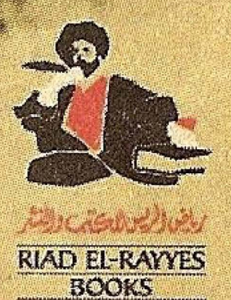
تاريخ مسكوت عنه

في هذا الكتيب يتناول الصحافي رياض نجيب الريس المسكوت والمصموت عنه في ولادة الكيان اللبناني والذي يطاول العلاقات بين لبنان وسورية، خصوصاً أن تلك العلاقات تشهد اليوم سجالات ساخنة وصارخة كأن الانتداب لم يغادر بلادنا بعد.

ما هو دور القناصل والمبشرين؟ وما هي حقيقة خيارات الطوائف المسيحية والإسلامية؟

ماذا مثل موقف البطريرك عريضة في الثلاثينيات؟ وما كان رد الصحافة السورية آنذاك؟

كلها أسئلة، يحاول المؤلف الاجابة عنها عبر مبادرة مبتكرة لتمزيق الحجب وإسقاط الأقنعة في حفل التنكر المزمن للصيغة اللبنانية.




ISBN 9953-21-046-2
9 789953 210469